obeikandl.com

(التمهـيد)

"نظام النقابات – الاتحـادات
في القرن الثالث عشر الميلادي"

obeikandl.com

التمهيد

شهدت أوربا العصور الوسطى الكثير من المتغيرات في كافة المجالات خاصة المجالين السياسي والاقتصادي، إذ انعكست الفوضى السياسية التي شهدتها مدن أوربا على التجار فتعرضوا لمختلف أنواع الأذى كسرقة ونهب متاجرهم، كما فرضت عليهم الكثير من القيود والضرائب التي أنهكتهم وجعلتهم يفتقرون إلى الأمن والحماية؛ بل إلى السلام، لذا لم يكن أمامهم سوى التجمع مع بعضهم البعض في نقابات تعمل على تحقيق الحماية لتجارها وتحريرهم من الرسوم والعوائد الجائرة والإعفاء من الضرائب التي تعيق نشاطهم التجاري، إلى جانب تحقيق تضامن قوي بين أفرادها حتى يتمكنوا من مجابهة أي خطر قد يواجههم مما أدى إلى تسيير الحركة التجارية.

وبذلك نرى أن النقابات لعبت دوراً بارزاً في تسيير دفة الحياة في مدن أوربا خاصة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين؛ مما أدى إلى تعددها وانتشارها في جميع أنحاء أوربا خاصة في إنجلترا وفرنسا والفلاندرز وألمانيا.

كانت النقابات واحدة من أهم المنظمات في العصور الوسطى، ولكنها كانت مختلفة عن بعضها في مهامها[1]. بيد أنه كان هناك تسليم بأنه لا خلاف حول أهميتها ووظيفتها خاصة فيما يتعلق بنقابة التجار[2].

وتشير سجلات العديد من المدن الأوروبية إلى وجود النقابات بها قبل العصور الوسطى[3]، إلا أنها تعرضت للتدمير بسبب الهجمات الجرمانية وما أعقبها من انحلال. ولكن بعضها على ما

---

(1) Rowling (M.), everyday life in medieval times, New York, 1968, P. 64.

(2) ج. كرامب وأ. چاكوب، تراث العصور الوسطى، ترجمة/ سعيد عاشور، وآخرين، جـ2، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، 1994م، ص625.

(3) هناك من الباحثين من يرجع نظام النقابة إلى أصول جرمانية بدائية وإلى الأخوة في الدين، وأن كلمة النقابة أول ما ظهرت كانت في مراسيم شارلمان Charlemagne الذي وافق على إقامتها. عن ذلك انظر:=

- =م. بيشوب، تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ترجمة/ علي السيد علي، ط/1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005م، ص226. وانظر أيضاً:

- Duruy (V.), Histoire du moyen age dé puisla chute de L'empire d' occident Jusqu au Milieu du XV Siecle, Paris, 1880, P. 354.

يبدو بقى في إقليم لومبارديا Lombardy[1] بإيطاليا، وعندما انتعشت التجارة والصناعة في القرن الحادي عشر الميلادي، بعثت النقابات الطائفية من جديد، وأخذت تتوالى في الظهور في مدن أوربا العصور الوسطي[2].

شهد القرن الثالث عشر الميلادي ظهور مؤسسة النقابة التجارية التي كان قد تم تأسيسها على أحسن حال في هذا القرن[3]، وكان ذلك مرتبطاً بعودة ظهور المدينة المثالية في العصور

(1) يقع سهل لومبارديا شمال أوربا، والذي حكمه دولة اللومبارديين Lombards وهم قبيلة ألمانية شديدة البأس نجحت في تكوين تلك الدويلة هناك في ظل الفوضى التي عانت منها إيطاليا نتيجة لهجمات البرابرة والقراصنة وقطاع الطرق، وظلت قائمة قرابة قرنين من الزمان واتخذت من بافيا Pavia عاصمة لها. عن ذلك انظر:

- جودة حسنين جودة، قارة أوربا – دراسات في الجغرافيا الإقليمية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2000م، ص188.
- لمزيد من التفاصيل عن أهمية موقع سهل لومبارديا ودوره التجاري آنذاك. انظر:
- زينب أبوالأنور السنيطي، أسواق وتجار أوربا العصور الوسطى، ط/1، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2013م، ص ص140-153.

(2) محمود سعيد عمران، حضارة أوربا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1996م، ص ص 175- 176.

- يرى البعض أن أصل الاتحادات، وبخاصة اتحادات التجار، ربما تطورت من اتحادات اجتماعية أو جمعيات تجار تكونت في البلاد الساحلية، غير أن اتحادات لندن London، من المحتمل أن تكون تنظيمات مفروضة عليهم من قبل السلطة الملكية. عن ذلك انظر:

- Early Gilds, in: Cave, (R. C.), Coulson, (H. H.), A source Book for medieval Economic History, New York, 1965, P. 194.

– ولعل ذلك يتضح من خلال المراسيم الإكليروسية Capitulary التي صدرت في فيرنيل Verneuil. عن ذلك انظر:

- Capitulary given at Verneuil, in: M. G. H., Legum, Sectio II, Tome II, Alfredus Boretius and Victorkrause, Eds. Hanover, 1897, A. D. 884, P. 375.

(3)Singman (J. L.), Daily life in medieval Europe, London, 1999, P. 193.

– ولمزيد من التفاصيل عن نشأة النقابات وتطورها انظر:

- Firebaugh (W.), The Inns of the Middle Ages, Chicago, 1924.

الوسطى، والتي شكلت في جوهرها مستوطنة تجارية، حيث عمل سكانها في التجارة وكافة الأنشطة[1]. كما كان هناك اتصال وثيق بين عودة الحياة الحضرية في أوربا وبين قيام المدن حيث أخذتا في النمو معاً. فكان لا يمكن أن يوجد طريقاً تجارياً مهماً لا تقم عليه مدينة، فكان أن قامت المدن الكبرى على الطرق التجارية[2].

كانت النقابات من أهم العوامل في حياة المدن الأوروبية في العصور الوسطى[3]. فقد سعت للحصول على براءات[4] تنص على تحرر المدينة من سادتها الإقطاعيين، على أن دورها كان أكثر بروزاً في تنظيم الحياة الاقتصادية داخل المدن وحماية التجار ورعاية مصالحهم من خلال الحصول على عدد من الامتيازات التي تكفل لهم حرية المتاجرة والحماية من اعتداء الأمراء ونهبهم من ناحية، ورعاية مصالحهم في الأسواق البعيدة من ناحية أخرى[5].

- Renard (G.), The Guilds in the Middle Ages, Tr. By G. H. D. Cole, London, 1919.
- Unwin (G.), The Gilds and Companies of London, 1988.
- Arias (G.), II Sistema della Costituzione economicae Sociale Italiana nell'e ta dei comuni, Turin, 1905.
- Staleyt (E.), The Guilds of Florence, London, 1906.

(1)Stephenson (C.), Medieval History, New York, 1951, P. 240.

(2)Stephenson, Medieval History, P. 238.

(3) نعيم فرج، الحضارة الأوربية في العصور الوسطى، ط/2، منشورات جامعة دمشق، سوريا، 2000م، ص131.

(4) نصت البراءات التي حصلت عليها المدن على حق تجارها في تأليف نقابات أو اتحادات، فإن لم تنص البراءة على ذلك فإن السبب يرجع قطعاً إلى قيام النقابة فعلاً قبل حصول المدينة على براءاتها، لأن الذي كان يحدث في كثير من الحالات هو أن يبدأ التجار بتأليف نقابة لهم لتقوم هذه النقابة بمفاوضة السيد الإقطاعي للحصول على براءة تضمن للمدينة حريتها. عن ذلك انظر:

- سعيد عبدالفتاح عاشور، تاريخ أوربا في العصور الوسطى، جـ/2، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1994م، ص102؛ نعيم فرج، الحضارة الأوربية، ص131.
- Painter (S.), A history of the middle ages, 284- 1500, New York, 1954, P.228.

(5) سعيد عبدالفتاح عاشور، تاريخ أوربا، جـ/2، ص102 .

- قد كانت النقابات من العوامل التي شجعت على ازدهار التجارة بصورة كبيرة. عن ذلك انظر:

كان الملك[1]، أو السيد الإقطاعي أو رئيس الأساقفة[2] يقوم بمنح البراءات للمدن متضمنة حقهم في إقامة نقابة أو اتحاد للتجار، من ذلك أن الملك حنا الأول John I (596- 613هـ/ 1199-1216م) [3] ملك انجلترا، قام بمنح مدينة دونويش Dunwich[4]، براءة تشمل عدداً من الامتيازات منها الإعفاء من الضرائب ورسوم العبور عبر أراضي المملكة، وكان من أهم هذه الامتيازات قيامه بمنحهم حق إقامة "اتحاد تجار" وفقاً لما اعتادوا عليه[5]. الأمر الذي يظهر الدور المهم الذي قام به التجار – أعضاء مثل هذه النقابات – من أجل الحصول على الشرعية والامتيازات

- هناء بنت محمد الراشد، التاريخ السياسي لإمارة قطالونيا ودورها التجاري في القرنين السادس- السابع الهجري/ الثاني عشر – الثالث عشر الميلادي، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، كلية التربية ببريدة، المملكة العربية السعودية، 1421هـ/2000م، ص ص 425- 427.

(1) قد تضمنت براءات الملوك امتيازات تسهل لهم العملية التجارية كالإعفاء من الضرائب وحرية الإبحار والعبور بين الموانئ المختلفة حاملين بضائعهم دون خوف، مثل البراءة الممنوحة من الملك هنري الأول Henry I لميناء الروين Rouen عام 1150م. عن ذلك انظر:

- Charter of Henry I to Rouen, in: Gross (C.), The Gild Merchnt, Vol. I, Clarendon Press, Oxford, 1890, about A. D. 1150, P.292.

(2) كان السادة رؤساء الأساقفة يقومون بمنح المدن البراءات متضمنة حقوق الحرية وكافة الامتيازات الأخرى بموجب السلطات المخولة لهم من الملوك. عن ذلك انظر:

- Archbishop Thursan's Charter to Beverley, in: Stubbs (w.), Select Charters of English Constitutional History, Oxford, 1913, A.D. 1130, PP. 131- 132.

(3) الملك حنا John: تولى العرش خلفاً لأخيه ريتشارد (قلب الأسد)، وقد نازعه فيه ابن عمه الأمير آرثر، وهو صبي في الثانية عشر من عمره، وأيده في هذا النزاع بارونات نورمنديا وأنجو و أكويتين وفيليب أغسطس، ملك فرنسا، مما دفعه إلى الدخول في حروب عدة بعضها داخل الجزر البريطانية والبعض الآخر في القارة، على أن هزيمته في القارة عام 611هـ/ 1214م، أدت إلى الثورة ضده حيث أجبر على التوقيع على العهد الأعظم Magne Carte في عام 612هـ/ 15 يونيو عام 1215م. عن ذلك انظر:

– نظير حسان سعداوي، تاريخ إنجلترا وحضارتها في العصور القديمة والوسطى، دار النهضة العربية، القاهرة، 1968م، ص ص 93- 97.

(4) مدينة دونويش Dunwich: هي بلدة صغيرة شرق Suffolk بإنجلترا على ساحل بحر الشمال. عندها انظر:

- The New Encyclopedia Britannica, Vol. III, London, 1974, P. 713.

(5) King John's Charter of Privileges to Dunwich, in: Stubbs, Select Charters of English,A.D. 1200, P. 308.

كذلك التي تيسر لهم العملية التجارية، وعليه فقد سعت النقابات لدى السلطة الحاكمة من أجل الحصول على امتيازات تكفل لهم حرية التجارة داخل المدن، وتطلعت إلى أكثر من ذلك حيث رغبت في الحصول على مزايا تمنح للأفراد التابعين للاتحاد فقط، حتى نجحوا في تحقيق الكثير مما سعوا إليه[1].

وبذلك نرى أهمية النقابات والاتحادات في مدن أوربا العصور الوسطى؛ خاصة في القرن الثالث عشر الميلادي، وكيف أنها كانت تسعى إلى تحقيق مصالحها الاقتصادية والسياسية، وأن تجعل نفسها صاحبة السلطة والرقابة الفعلية على تسيير أمور التجارة والإشراف عليها داخل المدن، وعليه فقط قام اتحاد التجار في الكثير من المدن بوضع العديد من الأسس والقوانين التي تضمن حقوق رجال الاتحاد ثم حقوق كل من البائع والمشتري بهدف تسيير العملية التجارية بشكل مقنن، وأن من يخالف هذه القوانين يتعرض للعقوبة والتي قد تقتصر على دفع غرامة مالية أو تتعدى ذلك بأن يغادر المدينة أو أن يمنع من التجارة لمدة عام باعتباره مجرماً[2]. وهو ما يجعلنا ندرك وبدون شك أن النقابات في أوربا العصور الوسطى لم يقتصر دورها على التشريع وإصدار القوانين فحسب؛ وإنما تعدت هذا الدور بأن أصبح لها حق التنفيذ ومعاقبة المخطئ كذلك[3].

وكانت النقابات عبارة عن هيئات تعمل صراحة لفرض قيود على التجارة، فكانت عادة، تجُبر المدن التي توجد فيها على منع دخول السلع التي تنافس إنتاجها بفرض الضرائب الجمركية المرتفعة أو بغيرها من الوسائل[4]. الأمر الذي يؤكد على الدور الذي لعبته النقابات داخل المدن في القرن الثالث عشر الميلادي وما قبله كذلك. والدور الذي لعبته أيضاً مثل تلك النقابات كاتحادات دولية في القرنين التاليين.

---

(1) Gross, The Gild Merchant, Vol. I, A. D. 1200, P. 293.
(2)Gross, The Gild Merchant, Vol. I, A. D. 1251, P. 294.
(3) قد كان هناك تضامن قوي بين أعضاء النقابات حتى يتمكنوا من رعاية مصالحهم، ومجابهة أي خطر قد يواجههم. عن ذلك انظر: نقولا زيادة، عالم العصور الوسطى في أوربة، ط/1، المكتبة العصرية، القدس، فلسطين، 1947م، ص194.
(4) محمود عمران، حضارة أوربا، ص ص176- 177.

تتضح سلطة النقابات من الحقوق الممنوحة لاتحاد دبلن Dublin[1]، والتي تم فيها تحديد العلاقة بين التجار الأجانب والمحليين، وتحديد كيفية التعامل مع تجارة التجزئة والجملة وحدودها في المدينة[2]، وعلى الرغم من أن هذه الحقوق قد تم منحها لاتحاد دبلن، في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي؛ إلا أنها توضح لنا أهمية مثل هذه الاتحادات وأهمية الدور الذي لعبته والتمهيد للدور الذي ستلعبه مثل هذه الاتحادات في القرون التالية:

قد نصت براءة اتحاد دبلن Dublin على ما يلي:

أنه لا يحق لتاجر أجنبي أن يشتري من تاجر آخر داخل المدينة قمح، وجلد أو صوف ولكن يشتري من المواطن. وآلا يكون هناك حانة خمر لأجنبي إلا على سطح سفينة، وألا يبيع الأجنبي القماش بالتجزئة في المدينة. وألا يتجول تاجر أجنبي ببضاعته لبيعها داخل المدينة إلا في حدود أربعين يوماً فقط[3].

وباستعراض الحقوق الممنوحة لاتحاد دبلن يتضح لنا كيف تمكنت النقابات في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي من تحقيق مكانة لها مكنتها من الحصول على امتيازات كبيرة استطاعت من خلالها المحافظة على حقوق تجارها المحليين داخل سوق المدينة[4].

ولعل النقابات قصدت من وراء الحصول على مثل هذه الحقوق والامتيازات أن تحفظ لتجارها المكانة الأولى داخل مدنهم حتى يضمنوا السيطرة الكاملة على التجارة؛ إذ ليس بمستبعد أن تكون النقابات نفسها قد قامت بشراء البضاعة من التاجر الأجنبي لتقوم بعد ذلك بتوزيعها على التجار والباعة المحليين، مثلما حدث في القرن الرابع عشر الميلادي، فقد ذكر الأستاذ كولتون في كتابه، أن الصوف أو الجلد المدبوغ أو الخام عندما يورد إلى المدينة لبيعه، فإنه إذا قام أحد أعضاء

---

(1) دبلن Dublin: كونتيه في منطقة Leinster يحدها شمالاً كونتيه Meath وكونتيه Wicklow جنوباً، والبحر الأيرلندي شرقاً، وكونتيات Kildere، وMeath غرباً. عنها انظر:

- The New Encyclopedia, Vol. III, P. 684.

(2) Rights of the Dublin Gild, in: Cave, Coulson, A source Book, PP. 207- 208.

(3) Gross, The Gild Merchant, Vol. II, A. D, 1192, P. 259.

(4) على أن النقابات قد تمكنت من الحصول على مثل هذه الامتيازات منذ أوائل هذا القرن وقبله. عن ذلك انظر:

- Thorpe (B.), Ancient Laws and Institutes of England, London, 1840, After A.D. 1115, P. 462.

النقابة بوضع قدمه على الصنف وعرض له سعراً فلا يجرؤ أحد من خارج أعضاء النقابة على شرائه، كما أن صاحبه لا يجرؤ على بيعه إلا لفرد من أعضاء النقابة، ولا يبيعه له بأغلى من السعر الذي عرضه[1].

وعلى الرغم من أن الأستاذ كولتون قد عرض هذا الأمر باعتباره من مساوئ وعيوب النقابات حيث ذكر أن الربح الناتج عن البيع لا يعود لصالح المدينة، وإنما لصالح أولئك الذين ينتمون إلى هذه النقابة[2]، إلا أنه أوضح في نفس الوقت المكانة التي وصلت إليها مثل هذه النقابات في القرن الرابع عشر الميلادي.

استغلت النقابات المنح والبراءات التي كانت تحصل عليها من الملوك أمثال الملك حنا John الذي اشتهر بمنح العهود التي تفاوتت في حجم الامتيازات الواردة بها[3]. حيث تمكنت من خلالها حماية أعضائها من الأخطار العديدة للحياة ومن المنافسة خاصة منافسة الأعضاء الآخرين من خارج النقابة. فقد عملوا كثيراً من أجل جذب الرجال إلى الصناعة وإبقاء معايير الجودة، كما لعبوا دوراً مهماً جداً في تطور الحضارة والصناعة والتجارة[4].

كانت أولى مهام النقابات تحديد المصنوعات التي تتواجد داخل الأسواق بهدف تحقيق مصالح الصناع والتجار أنفسهم من جهة ثم حماية المشتري من الغش والتدليس من جهة أخرى[5].

---

(1) عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة، ترجمة/ جوزيف نسيم، ط/2، دار المعارف، الإسكندرية، 1967م، ص196.

(2) المقصود بهذه النقابة: هي نقابة دربي Derby وذلك عام 731هـ/1330م. انظر: كولتون، عالم العصور الوسطى، ص196.

(3) Stubbs, Select Charters of English, P. 303.

(4) Painter, A History of the Middle Ages, P. 231.

(5) عن مهام النقابات في تحديد أنواع المصنوعات التي تتواجد داخل الأسواق. انظر:

- نعيم فرج، الحضارة الأوربية، ص131؛ محمد محمد مرسي الشيخ، النظم والحضارة الأوربية في العصور الوسطى، دار المعارف الجامعية، الإسكندرية، 1996م، ص93؛ هـ. بيرين، تاريخ أوربا في العصور الوسطى (الحياة الاقتصادية والاجتماعية)، ترجمة/ عطية القوصي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1996م، ص172؛ محمود عمران، حضارة أوربا، ص179.
- Halphen (L.), Peuples et Civilisations histoire generale, L'essor de L' Europe (Xl- XIII siecles), Paris, 1941, P. 552.

عملت النقابات على أن يقوم الصناع بإتقان الصنعة، لذا حرصت على أن تكون ساعات العمل خاضعة لرقابة شديدة، خاصة في الصناعات المرهقة والصعبة والتي تحتاج إلى جهد كبير واهتمام شديد في العمل[1]. على أن رئيس النقابة لم يكن ينظم نوع الشغل وساعات العمل فحسب؛ وإنما كان أيضاً يعاقب أعضاء النقابة إذا قدموا عملاً غير متقن أو طففوا وزن البضاعة[2].

حرصت النقابات على إتقان الصناعة في باريس لذا نجدها تقرر ألا تصنع البراميل الخشبية إلا من أنواع خاصة من الخشب الذي تم تحديده في دواي Douai[3]، كما أن الدوائر أيضاً لا يمكن أن تصنع إلا من الخشب الأبيض. ونظراً لحاجة المعارض للمنتجات، إلى جانب خوف النقابات من الخسائر والمنافسة، لذا فقد فرضت على كل صانع أو صاحب مهنة تخصص دقيق؛ فصانع الأحذية يجب أن يختار بين جلد الحمل أو جلد البقر أو الماعز، كذلك الصائغ لا يستطيع صنع الحلي إلا من الذهب أو الفضة الثقيلة، وصانع النسيج لا يصنع إلا عدد قليل من القطع المحدودة، فقد حددت أدق تفاصيل الصناعة للجميع مسبقاً[4]، حرصاً على إتقان الصنعة وجودتها، ففي دواي تم عام 663هـ/ 1264م، تسوية وتحديد حجم الأحجار المستخدمة في بناء المنازل[5].

لم تمنح العهود أو البراءات التي حصلت عليها النقابات التجار والصناع الحق في تكوين الاتحادات أو النقابات فحسب؛ دون تفصيل أدائها، وإنما منحتهم السلطات حق سن القوانين التي

- Singman, Daily Life in medieval Europe, PP. 195-196.
- زينب أبو الأنوار، أسواق وتجار أوربا، ص ص260-265.

(1) السيد الباز العريني، الحضارة والنظم الأوربية في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، القاهرة، 1963م، ص217.

(2) ل.ج. شيني، تاريخ العالم الغربي، ترجمة/ مجد الدين حنفي ناصف، دار النهضة العربية، القاهرة، د.ت، ص152. عن ذلك انظر أيضاً:
- بيرين، تاريخ أوربا، ص ص174- 175.

(3) دواي Douai: مدينة تقع شمال فرنسا، في المنطقة الشمالية، حيث تقع على أرض منبسطة عند نهر Scarpe، جنوب مدينة ليل Lille. عنها انظر:
- The New Encyclopedia, Vol. III, P. 636.

(4) Halphen, Peuples et Civilisations histoire, PP. 552-553.
- عن بعض قرارات النقابات فيما يخص ذلك. انظر:
- Singman, Daily life in medieval Europe, P. 197.

(5) Halphen, Peuples et Civilisations histoire, P. 553.

تسهل تسيير العملية الاقتصادية، وحق تنفيذ كافة قوانينهم من أجل تحسين أحوال المدينة كذلك[1].

قامت النقابات بتنظيم الأسعار والإشراف على العمل والقيام بالوزن والقياس للتأكد من المعايير الضرورية لأن الهدف من قيامها هو حماية أعضائها. فإذا تم التأكد من امتناع أحد الأعضاء عن تنفيذ هذه النظم فإنه يتم تغريمه فيدفع غرامة عن ذلك حيث كان لجميع النقابات القاعة النقابية الخاصة بها والتي يجتمع فيها أعضاء النقابة من أجل تحديد الغرامات ولتسوية الخلافات أو للبحث عن البضائع المسروقة[2]. فعندما سمحت السلطة للتجار والصناع داخل المدن بتكوين نقابات لهم كان الهدف من وراء ذلك هو تحقيق الاستقرار داخل المدن وتيسير العملية الاقتصادية بها، لذا فقد سمحت لهم بتنفيذ كافة النظم التي أقروها من أجل تحسين أحوال المدينة[3]. فقد أسهمت هذه النقابات في العمل على ألا يخرج أحد من المواطنين عن الأعراف الخاصة بالمدينة في أي أمر يتعلق أو يختص بالتجارة أو بأي عمل له داخل السوق[4].

لم تقف مهمة النقابات عند حد تحديد المكاييل والمقاييس والأوزان الخاصة بالسوق أو المعرض في دائرة اختصاصها فحسب؛ وإنما امتدت إلى مراقبة عمليات البيع والشراء داخلها للتأكد من عدم وجود أي اختراق من الباعة لمجموعة الأوزان والمقاييس المعتمدة[5].

(1) Stubbs, Select Charters of English, PP. 131-132.
(2) Rowling, everyday life, P. 65.
- عن دور النقابات في تحديد الأوزان ومراقبتها لعمليات البيع. انظر:
- Duruy, Histoire du Moyen age, P. 354.
- Singman, Daily life in medieval Europe, P. 196.
- محمود عمران، حضارة أوربا، ص177؛ محمد محمد مرسي الشيخ، النظم والحضارة، ص94.
(3) Stubbs, Select Charters of English, PP. 131-132.
(4) Gross, The Gild Merchant, Vol. II, PP. 119-122.
(5) لمزيد من التفاصيل عن ذلك وعن تحديد طرق البيع. انظر:
- زينب أبو الأنوار، أسواق وتجار أوربا، ص ص 275-276.

حددت النقابات أماكن البيع[1]، والأيام المخصصة لذلك فقد أصدرت أوامرها بعدم البيع في الأعياد المقدسة كعيد الفصح ويوم عيد الميلاد، وأيام الأحد[2]، امتثالاً لأوامر الكنيسة وتعاليمها[3].

وعليه نستطيع القول بأن كل النقابات قد وضعت قوانينها الخاصة بها والتي تنظم عملية البيع وطرقه وكانت تلك القوانين تشتمل على تحديد العلاقات وطرق التعامل بتجارة التجزئة والجملة وحدودها المسموح بها داخل المدينة[4]. الأمر الذي يضع العملية التجارية تحت الرقابة من جهة، كما يعود بالنفع على المشترين من جهة أخرى، حتى وإن كانت هذه القوانين قد وضعت أساساً لحماية التجار المحليين. إلا أنها تفرض على التاجر الأجنبي ألا يشتري من تاجر أجنبي آخر داخل المدينة، وإنما صرحت وسمحت له بأن يشتري من المواطن[5]. وبهذا قامت بحماية حق المواطن المحلي في ممارسة التجارة وعدم تعرضه للمنافسة الأجنبية التي قد تؤثر على تجارته، فإذا كانت النقابات قد سمحت للتاجر الأجنبي بدخول مدينتها، وأن يبيع في سوقها إلا أنها قيدته في عملية البيع بألا يبيع بالتجزئة. ففرضت عليه إذا أحضر أقمشة

(1) كانت عمليات البيع في أسواق ومعارض العصور الوسطى تخضع لتنظيم شديد فتتم وفق ساعات محددة ويجب أن تتم داخل السوق طالما أنه في حالة انعقاد وأن من يخالف ذلك يقوم بدفع غرامة حيث كان السوق مكان التقاء الغني والفقير على حد سواء. عن ذلك:

- Migne (J.P.), Patrologiae Cursus Completus, Vol. LXXX, Paris, A.D. 629, P.510.
- Thorpe, Ancient Laws and instituted of England, P. 469.
- عزيز سوريال عطية، العلاقات بين الشرق والغرب (تجارية – ثقافية – صليبية)، ترجمة/ فيليب صابر سيف، ط/1، دار الثقافة، القاهرة، 1972م، ص166؛ السيد الباز العريني، الحضارة والنظم، ص ص124-125.

(2) Singman, Daily life in medieval Europe, P. 196.
(3)Jarrett, Beda, O.P., Social Theories of the middle Ages, Translated by Father Jarrett of Serm. XCII, in Merchants, P. 562, other by Humbert de Romans (Ernest Benn, London, 1926), A. 1194-1277, P. 164.
(4)Cave, Coulson, A source Book, P. 207.
(5)Gross, The Gild Merchant, Vol. II, P. 57.

مصبوغة أن يبيعها جملة واحدة، كما أجبرته إذا أحضر فلفلاً[1]، أو كموناً أو زنجبيلاً[2]، أو حجر الشب[3]، أو صمغ الريتنج[4]، أو البخور، ألا يبيع أقل من خمسة عشر رطلاً[5] في المرة الواحدة. كما منعته من تقطيع الأقمشة الحريرية أو الصوفية أو المنسوجات الكتانية وإنما عليه أن يبيعها جملة واحدة ككل، وفرضت عليه كذلك إذا أحضر شمعاً ألا يبيع منه أقل من الربع[6].

إذاً فإن قيام النقابات بتحديد طرق بيع كل سلعة يحملها التاجر الأجنبي معه إلى داخل سوق مدينتها توضح كيف قيدته النقابة بضرورة البيع بالجملة وذلك حماية للتاجر المحلي.

قامت النقابات كذلك بتحديد تكاليف الإنتاج وأسعار البيع[7]، وذلك بتحديد طريقة

(1) الفلفل: كان أهم التوابل طلباً في أوربا، اشتدت الرغبة في الحصول عليه، وكان مصدر إنتاجه ساحل المالابار وكلكتا وسيلان والهند الصينية، وكان يستخدم في أوربا كعلاج لبعض الأمراض ويدخل في صناعة النبيذ وحفظ الطعام. عن ذلك انظر:

- نعيم زكي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب؛ (أواخر العصور الوسطى)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1973م، ص199؛ عفاف سيد صبرة، العلاقات بين الشرق والغرب، (علاقة البندقية بمصر والشام في الفترة من 1100- 1400م)، دار النهضة العربية، القاهرة، 1983م، ص168.

(2) الزنجبيل: من أهم توابل العصور الوسطى، يدخل في صناعة العقاقير الطبية والطهي وحفظ وتحضير الخمور ويزرع بكميات كبيرة في الهند والصين وسمرقند وبعض البلاد العربية. عن ذلك انظر:

- نعيم زكي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، ص205؛ عفاف سيد صبره، العلاقات بين الشرق والغرب، ص169، حاشية (193).

(3) الشب: حجر يستخدم في الصباغة وكان موجوداً بصحراء مصر، ومن أهم استخداماته تثبيت الألوان في الرسم والتذهيب والدباغة. عن ذلك انظر:

- عفاف سيد صبره، العلاقات بين الشرق والغرب، ص171، حاشية (210).

(4) صمغ الريتنج: الصمغ نوع من العصارة تخرج من بعض النباتات عند إحداث شقوق في لحائها، أو إذا انشق لحاؤها طبيعياً ويتجمد عند تعرضه للهواء، تكثر أشجاره في اليونان وتركيا. عنه انظر:

- نعيم زكي، طرق التجارة، ص234.

(5) الرطل: يساوي الرطل 12 أوقية، ويساوي كذلك 100/1 من القنطار. انظر:

- فالتر هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة/ كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، 1970م، ص30.

(6)Thorpe, Ancient Laws and Instituted of England, P. 462.

(7) عن ذلك انظر: زينب أبوالأنور السنيطي، أسواق وتجار أوربا، ص ص 278-283.

obeikandl.com

الإنتاج والبيع، وأثمان المواد الخام، والمصنوعات. كما كانت تحدد للسلع ثمناً عادلاً أربع أو خمس مرات في كل عام بما تراه حافزاً قوياً للإنتاج ومجزياً لجميع المهتمين به[1].

وعموماً نستطيع القول بأن النقابات حتى تتمكن من القيام بمهامها السابقة كان لابد أن يكون لها رؤساء يرأسونها ويديرون شئون أعضائها. فكان لكل نقابة تنظيمات خاصة بها، تدبر شئونها بنفسها عن طريق نواب يتم انتخابهم ويرأسهم المحلفون أو العمد. وأصبح لكل نقابة قوانينها ونظمها وخاتمها وعلمها وممتلكاتها وأموالها، كما كانت تتمتع بنفوذ سياسي واقتصادي كبير[2].

كان يتم انتخاب رئيس النقابة من قبل الأعضاء النقابيين داخل المدينة ورجال الأعمال البارزين، من ذلك ما حدث في مدينة لندن London عندما اجتمعت في شكل مهيب جماعات النقابيين في المدينة في قاعة مبنى النقابة القديم لاختيار الرئيس العام للنقابة، وتركز برنامجهم على الاحتفال والاستعراض والعشاء الراقي. وكان هؤلاء مجموعة من رجال الأعمال البارزين في المدينة، والذين ابتعدوا بعض الشيء عن التجارة حسبما ذكر ذلك أحد أعضاء جماعة صناع الأحذية والمشتغلين بتجارة الجلود[3].

يتضح ذلك من خلال اختيار رئيس لاتحاد التجارة في إبويش Ipwich[4]، حيث نظمت حكومة الاتحاد أمورها بها حتى يتم اختيار رئيس لاتحاد المدينة المذكورة، فقرروا أنه سيتم انتخاب رجل أمين، عادل، مناسب من مجلس عموم المدينة ليكون رئيساً لاتحاد التجار في نفس البلدة. ويكون له أربعة مساعدين وعليهم أداء القسم للمحافظة على الاتحاد وكل ما يتعلق به. والتأكد من ألا يخرج أحد من مواطني المدينة المذكورة عن الأعراف التجارية – إذا كان تاجراً – فيما يتعلق بالضرائب ومعاملاته في البلدة، وتم في نفس اليوم انتخاب William

(1) محمود عمران، حضارة أوربا، ص 177.

(2) جوزيف نسيم يوسف، تاريخ العصور الوسطى الأوربية وحضارتها، ط/2، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1987م، ص230.

(3) بيشوب، تاريخ أوربا، ص227.

(4) إبويش Ipwich: مدينة وسوق قديمة، تقع في بحر الشمال، وهي مقاطعة في Suffolk، شرق إنجلترا. عنها انظر:

- The New Encyclopedia, Vol. IV, P. 416.

Gottschalk[1].

إذاً فإن عملية اختيار رئيس للاتحاد أو النقابة كانت تتم عن طريق الانتخاب، وأن المسئولية لم تكن تقتصر على الرئيس فحسب؛ وإنما كان هناك عدد من المساعدين يتم انتخابهم أيضاً، وأن هؤلاء المساعدين كان يختلف عددهم من حرفة لأخرى ومن مدينة لأخرى كذلك.

ويظهر كذلك من خلال اختيار رئيس لاتحاد التجار في مدينة إبويش، والذي تم في بداية القرن الثالث عشر الميلادي، مدى التنظيم والدقة في اختيار أعضاء النقابات لمن يرأسهم ويمثلهم، ومدى ما وصلت إليه النقابات من قوة ومكانة في هذا القرن.

أخذت النقابات تعمل على تنظيم نفسها تنظيماً دقيقاً يحقق لها مصالحها الاقتصادية بدءً من إتقان الصنعة الأمر الذي يحقق جودة السلع، لذا فقد سعت للعمل على الحد من المنافسة، وضمان جودة السلع من خلال قيامها بوضع شروط صارمة للدخول في النقابة وقوانين صارمة على الأسعار والمرتبات ومعايير الجودة وإجراءات التشغيل[2].

كانت للنقابات جميعها قاعات خاصة بها يجتمع فيها الأعضاء لفرض الغرامات ولتسوية الخلافات وللبحث عن البضائع المسروقة[3]، وكانت مباني النقابات في العصور الوسطى تزين بزخارف بديعة[4]، يشهد على ذلك ما تركته النقابات فيما بعد من تماثيل وسجلات مكتوبة جعلت المؤرخين يقدرون مدى أهميتها[5].

تألفت النقابات من مختلف أصناف التجار، كما ضمت أحياناً بعض أصحاب الحرف[6]بل بعض أصحاب الأراضي الزراعية المجاورة، وقد شملت عضوية النقابة في بعض الأحيان

(1) Polity of the Gild at Ipswich, in: Gross, The Gild Merchant, Vol. II, A.D. 1201, PP. 119- 122.
(2)Hollister (C.W.), Medieval Europe A short History, New York, 1990, P. 148.
(3) Rowling, everyday life, P. 65.
(4) محمود عمران، حضارة أوربا، ص 178.
(5)Koenigsberger (H.G.), A History of Europe, Medieval Europe, 400-1500, New York, 1994, P. 222.
(6) قد شهدت نقابات أصحاب الحرف (أو النقابات الحرفية) تفرعاً كبيراً في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر. عن تفرع النقابات الحرفية ومدى الثراء الذي حازته. انظر:=

أفراداً من التجار الأجانب الذين يتاجرون في المدينة[1]. إذا كان أعضاء نقابات التجار من التجار المحليين والأجانب، واقتصرت في بداية الأمر على تجار المدينة الواحدة ثم توسعت لتشمل تجاراً من خارجها. وظلت حتى أواخر العصور الوسطى الصلة قائمة بين ممثلي السلطة وهيئات التجار[2].

يتضح مما سبق أن النقابات أو الاتحادات قد خرجت من طور المحلية فبدأت بضم التجار الأجانب إلى جانب التجار المحليين، ثم توسعت لتشمل تجاراً من مدن أخرى تمهيداً للدور الدولي الذي ستلعبه مثل هذه الاتحادات في القرنين التاليين عندما تتحد اتحادات مجموعة من الدول لتمثل اتحاداً أكبر وأكثر نفوذاً لحماية مصالح تجارها ولتحتكر العملية التجارية في نفس الوقت.

حازت النقابات على دعم الملوك، إلى جانب ما كانت تقوم به السلطة من سن القوانين لها حيث قام القديس لويس Saint Louis (624-669هـ/1226- 1270م)[3] بسن عدد من القوانين من أجل النقابات في باريس. والتي كانت تتكون من هيئات مسئولة عن تنفيذ

- =سعيد عاشور، تاريخ أوربا، جـ2، ص104؛ كرامب وجاكوب، تراث العصور الوسطى، جـ2، ص626؛ بيشوب، تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ص226؛ شيني، تاريخ العالم الغربي، ص ص 151-152.
- Rowling, everyday life, P. 64.
- Mundy (J.H.), Europe in the Middle Ages, 1150-1309, London, 1993, P. 91.
- Duby (G.), Mandrou (R.), Histoire de la Civilization Moyen age-XVI. Siecle, Paris, 1968, PP. 183-184.

(1) كرامب وجاكوب، تراث العصور الوسطى، ص125.

(2) نعيم زكي، طرق التجارة، ص332.

(3) القديس لويس: تقلد عرش فرنسا بعد وفاة أبيه تحت وصاية أمه بلانش القشتالية، عرف بإسم القديس لتدينه، تزوج من مرجريت أميرة بروفانس، كان نمط حكومته دينياً، كما أنه تحلى بصفات تجعله يصلح كفارس، ارتبط بالبابوية بعلاقة وطيدة. قرر القيام بالحملة الصليبية السابعة، لغرض ديني، وفشل فيها كما فشل في حملته على تونس عام 1270م، والتي مات على أثرها. عنه انظر:

- Joinville, History of Saint Louis, Tran. Evaus, Oxford, 1958.
- والترجمة العربية: جوانفيل، سيرة القديس لويس، ترجمة/ د. حسن حبشي، ط/1، القاهرة، 1968؛ عفاف صبره، الإمبراطورية والدولة في عهدي فردريك الثاني ولويس التاسع، بحث في مجلة كلية الدراسات الإنسانية، جامعة الأزهر، عدد 1982م، ص ص 80-91.
- Perry, Louis IX, London, 1967.

قوانينها، إذ كان لرؤساء الحرف الشرطة الخاصة بهيئاتهم، كما كان هناك إدارة وقيادة داخلية وأيضاً سلطة قضائية، ولكنهم كانوا مسئولين أمام رئيس أو عميد التجار عن الاضطرابات والفوضى الحادثة داخل النقابات[1].

وربما يقصد برئيس أو عميد التجار هذا، رئيس اتحاد التجار الذي يتم انتخابه من بين مجلس المدينة، على أن يكون عادلاً وأميناً ومؤهلاً لهذا المنصب[2].

يتضح لنا مما سبق أن النقابات في مدن أوربا العصور الوسطى، بلغت شأناً كبيراً بما وصلت إليه من مكانة حققت لها نفوذاً سياسياً واقتصادياً، ثم اجتماعياً أيضاً. حيث شاركت مشاركة ملموسة وفاعلة في جميع نواحي الحياة، الأمر الذي يجعلنا ندرك مدى أهمية هذه النقابات في المجتمع الأوروبي الوسيط؛ خاصة عندما خرجت من طور المحلية لتحمل الطابع الدولي فيما عرف بإسم الهانزا Hanse. إذ يتجلى التنظيم الخارجي (الدولي) للنقابات بشكل واضح في اتحاد مدن الهانزا، وبرزت قوته في القرن الرابع عشر الميلادي وهو ما سنتعرف عليه بصورة أكثر وضوحاً في الصفحات التالية:

(1) Duruy, Histoire de Moyen age, P.354.

– قد تعاونت سلطات المدن مع النقابات في تحديد مستوى المنتجات، لذا فرضت رقابة صارمة على المنتجات التي تصدر إلى خارج البلاد ليراعى فيها الجودة والدقة، لذا أخضعوا هذه المنتجات لتفتيش دقيق خارج أسوار المدن قبل القيام بالتصدير، وإذا ثبت وجود بضائع غير متقنة أو غير مطابقة للمواصفات لا يتم تصديرها. عن ذلك انظر:

- Nicholas (D.), The Evolution of The Medieval World; Society, government and thought in Europe, 312- 1500, London, 1992, PP. 305-306.

(2) Gross, The Gild Merchant, Vol. II, PP. 119-122.

obeikandl.com

obeikandl.com